الموسيقى والغناء

وأثرهما فى ترقيق الشعور

للأستاذ طه خطاب

المدرس بحلوان الابتدائية للبنات

قد يتبادر إلى الذهن عند قراءة هذا العنوان أنى فنان أو موسيقى ، أو من الذين يستطيعون أن يرفعوا عقيرتهم بعبقريات الأغانى ، ولكن الحقيقة الناصعة أنى لست واحدا من هؤلاء ، ومع هذا فإنى استطيع أن أحس وأشعر ، وأن أعبر وأصور ، وأن اتخيل ، وأسبح ، وأن أجمع بين الشقائق والنظائر فى هذا الفن الجميل .

* * *

فالموسيقا والغناء كانا فى أول عهدهما مقصورين على الصوت الطبيعى ، حتى تنبه الأنسان على سبيل الاتفاق والمصادفة إلى اختراع الآلات والمعازف عند سماعه صفير الهواء المتولج من الخصاص والثقوب ، فاستعمل للنفخ أنابيب القصب ، وللعزف أوتار القسى ونحن إذا أمعنا النظر وأرهفنا الأذن لما يبدو ماثلا أمام أعيننا فى الطبيعة من ثروة الجمال ، رأينا الروعة والبهجة والسحر مما يعبر لنا عن دقة صنع الخلاق العظيم والانسجام الموسيقى والتناسق والتناسب بما نسمعه من هديل الهزار وتغريد الكنار ، وصدح اليمام ، وخرير الانهار ، وحفيف الأشجار ، وتنهدات نسيم الأشجار ، وهطل الوبل ، وحركات المد والجزر وهبوب الرياح ، وغير كل هذا مما يعبر عنه بموسيقا الأكوان .

هذا والموسيقا على رأس الفنون الروحية ، وهى وثيقة الصلة ، وطيدة العلاقة بمختلف الفنون فالمنظر الطبعى الأخاذ يشترك فى التعبير عنه الموسيقى بلحنه الجميل الناطق ،والرسام فى إخراج لوحاته الفنية الرائعة ، والشاعر فى صوغه له على شكل قصيدة عصماء تحفل بصوره ، وتزهو بألوانه ، وتموج بمعانيه .

وبهذه المناسبة فالقطع الأدبية شعرية أو نثرية لاتفعل فى النفس فعل السحر الحلال إلا إذا تناسقت ألفاظها ، وتآلفت نغماتها ، وكانت ذات جرس ورنين موسيقى يجعلها خفيفة الوقع ، جيدة السبك ، ولهذا فالأدب والموسيقا متآلفان من قديم الزمان وقد أدى تآلفهما إلى إنعاش الادب أولا وانعاش الغناء ثانيا ، وما مجالس الغناء بالأشعار، وحفلات الانشاد والطرب ببعيدة عن الأذهان ، وخاصة فى العصر العباسى الذى راجت فيه هذه المجالس ، وشجع ملوكه المغنين والشعراء ، حتى أتوا بالمعجز المعجب والمفرح المطرب فى هذا المضمار .

وإذا كان العلم يهذب النفوس ، ويصقل الأذهان ، ويربى العقول ، والرياضة البدنية تقوم ما اعوج من الأجسام ، وما احدودب من الظهور ، فإن الموسيقا - وهى لغة الشعور — ترقق الحواشى ، وتشذب العواطف ، وتخاطب الوجدان ، وتناجى الاحساس وكذلك الغناء فإنه من أبلغ الوسائل فى تأدية الأدب الرفيع ، وهو المزاج العذب الفرات الذى يبثون به الادب فى النفوس ، وهو الوسيلة العظمى التى يشجعون بها الجبان ويصبرون الحزين ويشحذون بها الهمم الخامدة، ويندون الاكف الجامدة ، ويبلغون بها أقصى مايريدون من المعانى السامية .

وقد قال أفلاطون فى فضائل الموسيقا : إنها غذاء النفس ، ومبعث الاتزان والفطن ، وهى عطية آلهة الفنون الحرة التى تحول مافينا من شاذ متنقل إلى محكم ثابت، وترد كل تنافر إلى جناس متناسب ، وتبصرنا طريق الهدى والرشاد .

ولما كانت الموسيقا من الفنون الروحية التى توقظ المشاعر ، وترهف الحس ، وكانت رسالة الاديان هى السمو بالروح عن حضيض المادة فقد احتضنت الاديان فنون الموسيقا لأن فيها غذاء للارواح ، وهى - فوق هذا - سلسبيل القلوب ، وصقال النفوس ، وروضة الاذهان .

ومما هو جدير بالذكر أن الموسيقا والغناء متعتان مشروعتان لا يأباهما الدين ولا تنكرهما الشريعة مادام الغرض منهما هو الترفيه عن النفس المكدودة ، وتهدئة الخاطر المبلبل ولندع مايتشدق به المتزمتون من أن الدين ينكرها ، والشرع لا يبيحها ، وحسبنا فى تفنيد زعمهم أن بعض الشيوخ من السلف الصالح قد استدلوا على إباحة الغناء وسماع الموسيقى بأحاديث شريفة صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنها ماروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل على أبو بكر رضى الله عنه وعندى جاريتان من جوارى الانصار تغنيان بما تقاولت به الانصار يوم بعاث فقال أبو بكر : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ؟ وذلك يوم عيد فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بكر إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا ،

وروى عنها أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى تدففان وتضربان والنبى (ص) متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبى عن وجهه وقال : دعهما ياأبا بكر فانها أيام عيد ، وتلك الأيام أيام منى .

ومما رواه مسلم عن جابر قال : زوجت عائشة رضى الله عنها ذات قرابة لها رجلا من الانصار فجاء رسول الله (ص) فقال : أ أهديتم الفتاه ؟ قالوا : نعم قال : هل أرسلتم معها من يغنى ؟ فقالوا : لا ، فقال رسول الله : إن الأنصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا ما حللل بواديكم

أما عن سماع الموسيقا فقد روى عن عائشة أن رسول الله سافر سفرا فنذرت جارية من قريش لئن رده الله تعالى : أن تضرب فى بيت عائشة

بدُفّ ، فلما رجع رسول الله جاءت الجارية فقالت عائشة لرسول الله . فلانة ابنة فلان نذرت لئن ردك الله تعالى أن تضرب فى بيتى بدف قال : فلتضرب .

وقد روى أن الامام أحمد بن حنبل كان لا يحدث حديثاً إلا بعد أن يغنى على عود .

وورد فى التوراة : سبحوا الرب بالمزمار والقيثارة ، وعند قراءة القرآن قال النبي (ص) حسنوا القرآن بأصواتكم فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا ، وكان داود عليه السلام يقرأ مزاميره بالألحان حتى إن بعض الطيور كانت تقع وتموت من شدة الطرب لأنه كان حسن الصوت .

على أن « مارتن لوثر » اللاهوتى القدير قد أبان للملأ الوظيفة المهمة التى تؤديها الموسيقا فى المجتمع من إلانة الطباع وتهذيب الأخلاق ، وقال على رءوس الاشهاد : إنى أفسح بكل سرور للموسيقا بعد علم اللاهوت المكان اللائق بها .

من هذا نعلم أن الأديان قد شجعت الموسيقا والغناء إذا كانا لاراحة الخواطر المكدودة ، والأعصاب المرهقة ، وقد تنبه الناس من بعيد لاستخدام الموسيقا فى معالجة بعض العلل العصبية والعقلية ، وأقدم ما يروى من ذلك ما كان من أمر « شاول » ملك بنى إسرائيل حين تخبطه روح السوء وكان داود يضرب له بالعود فيجد روحا .

ويروى عن فيليب الخامس أحد ملوك أسبانيا أنه اعتراه مس ، وكانت الملكة تعرف شدة ميله إلى السماع فأرسلت إلى « فارينلى » الموسيقى الشهير فى مدريد تستقدمه . وأقامت له مجلس سماع فى دار تجاور مقام الملك ، فلما سمع الملك أول فصل من غنائه حصل عنده تنبه كمن استيقظ من نوم عميق ، وفى الفصل الثانى طرب وارتاح وأمر بأن يؤتى « بفارينلى » وبعد ما غنى بين يديه أثنى عليه وجامله وأمره أن يقترح عليه ما يتمنى .

وذكر أحد أطباء « بطرسبرج » أن وليدة لها من العمر أربع سنوات

كانت تخاف بالليل فأشار على ذويها أن يعالجوها بالغناء فكانت أمها تجلس بجانب سريرها وتغنيها بصوت منخفض فلا تلبث أن تسكن إلى صوتها وتنام ولم يأت على ذلك شهر حتى شفيت تماما .

ولا يجهل أحد ما للنغم من تأثير فى العصب بالتسكين مرة والتهييج مرة أخرى حتى إن الجندى يقتحم الموت غير مبال ، والبعير ينشط على صوت الحداء إلى غير ذلك مما هو مشهور ، وقد ذهب بعضهم إلى أن للسماع تأثيرا فى دورة الدم ، وذكروا أن أعظم الأنغام تقوية لدورة الدم أكثرها ألفة عند العليل ، فاذا كانت الأنغام مفرحة دق معها النبض وقوى ازدواجه وبعكسها الأنغام الشجية فان النبض معها يكون عريضا لتأثيرها على العصب الممدد للأوعية .

ونقل عن بعض أطباء اليونان أن الموسيقا تشفى من الطاعون ، ولدغ الهوام - والسل والنقرس والكلب ، وذهب غيرهم إلى أبعد من ذلك ، فزعم « بورتا » أنه إذا اتخذت المعازف من خشب العقاقير الطبية وضرب بها على سماع العليل فعلت فعل الدواء نفسه .

والذى عليه علماء منافع الأعضاء اليوم ، أن النغم لا يخلو من تأثير فى أصحاب الأمراض العصبية والعقلية ، وقد اختار ذلك « المسيو لابورد » ، وهو ممن اشتهر فى استخدام النغم حتى فى خلع الأضراس .

وقيل منذ القدم إن الموسيقا تجرى فى الجسم ، وتسرى فى العروق ، فيصفو لها الدم ويرتاح لها القلب ، وهى من الأدوية المفيدة فى علاج بعض الأمراض النفسية والعقلية .

وفى هذا العصر قرر المجمع الطبى الدولى إدخال الغناء والموسيقا إلى المستشفيات بعد ما تبين له من نتائجهما الحسنة ، وتأثيرهما الفعال فى المرضى والإسراع فى شفائهم .

وقديما أبدع الإغريق فى صناعة الغناء أيما إبداع ، وتوسلوا به فى قضاء الحوائج حتى كان إذا دجا ليل الفتنة استدعوا زعماءها إلى حفلة غناء ، وأسمعوهم

النصائح بلسان الغناء والموسيقا فتلين طباعهم ، ويكبح جماحهم ، وتسكن شرتهم ، وتخضد شوكتهم .

ولقد دل الاختبار على أن الطفل الرضيع يدهمه الحزن وتخنقه العبرة ويركب رأسه فى العناد ثم يبرح به البكاء فتغنيه أمه «نم ياحبيبي بسلام مثلا» فيهدأ مضطرب مزاجه ، وتسكن ثورة لجاجه ، وينام آمنا مستريحا ، وذلك لان نفثات الغناء كالسحر تشجيه وتنسيه أحزانه .

إذن فالموسيقا والغناء يفعلان فى النفوس فعل الدواء الناجع والبلسم الشافى ، ويردان إلى الناس الطمأنينة الغاربة والصحة العازبة ، ويمثلان دور الطبيب النطاسى والمداوى الآسى .

ونحن إذا أمعنا النظر ، ودققنا البحث وجدنا أن الموسيقا لم تؤثر فى الانسان فحسب ، وإنما تعدته إلى الحيوان فكبحت جماحه ، وألانت طماحه وذللت عاصيـــه ، وروضت نافره ، فما يروى فى خرافات اليونان أن « أرمنيوس » كان يتسلط بأغانيه على الوحوش الضارية فيجعلها أطوع من بناته ،

وقال « بوسيه » المؤلف الفرنساوى مؤكداً أن ضابطا من ضباط « الباستيل » كان سجينا ، فلما اشتدت به الوحشة ، وألهبه السأم ، كان يعزف على الناى فكانت تخرج إليه فأرة من أحد الاحجار ترقص على نغمة فسر الضابط بهذا المنظر ، وجعله مسلاة يدد بها وحشته ، ويسرى بها عن نفسه .

وقد روى أن من أفاعى الهند هامة كثيرة الفتك بالسكان يسمونها «الكبرى» تعد ضحاياها كل عام بالآلاف ، وهى مع شدة جموحها وعدوانها يذللها الغناء فاذا سمعتـــه وهى فى أعماق أجحارها تخرج متهادية ثم تنصب درقتها نحو المغنى وتهتز يمنة ويسرة على رنين النغمات وتتخدر فيها أعصاب الحذر فتستسلم للصيادين .

وثبت أن الحيات تكثر حيث يكثر الغناء والصفير ، وقد حدث أحد المتخرجين فى إحدى كليات بيروت ، أنه وبعض زملائه عثروا على حيـــة

صغيرة فقبضوا عليها ، وأراد أن يمتحنوا فيها هذا الأمر فجاءوا بها إلى فناء واسع وأطلقوها ، وكان أحدهم إذا عزف على معزف تقف ، وإذا توقف عن العزف تسير ، وقد امتحنوا ذلك مراراً وهم بعيدون عنها فصح امتحانهم. وقد ورد فى إحدى صحف بيروت أن قسيساً يقال « داويس » كان له ولد فى سن الرابعة فدنا الولد من أسد مسلسل لبعض الجيران ، وكان من أشرس السباع إلى أن صار عند براثنه فخفقت لذلك قلوب الحاضرين ، ولم يكن هناك من يجترىء على إنقاذه ورأت ذلك فتاة كانت فى غرفة مشرفة على موضع الأسد ، فأسرعت وأخذت توقع على آلة موسيقية اللحن المعروف « بملك الآجام » فسر الأسد سروراً ذهل به عن فريسته ، والتفت إلى جهة الصوت مصغياً فذهب الولد مطمئناً كأن لم يكن ما يخشاه ، ولكن العجيب فى هذا الأمر أن الطفل لما بلغ البيت وسمع البكاء وشاهد الاضطراب من أجله صرخ وبكى !

وأغرب من ذلك أن للغناء تأثيراً فى البقر ، فإذا كانت الفتاة التى تحلب البقرة تغنى تحتها فى أثناء الحلب غناء شجياً فلا شك أنها تدر لبناً يزيد مقداره على المعتاد بنسبة ٢٥ ٪ ، وكذلك الخيل فإنها مشهورة بالرقص على أنغام الموسيقا .

ومن طريف ما روى فى هذا الصدد، أن ذهبت بعض السيدات الأمريكيات إلى إحدى دور « السينما » فى أمريكا واشترت تذكرتين « للسينما » واحدة لها والأخرى لكلبها ولما سئلت فى ذلك أجابت بأنه يحب موسيقا « الأوپرا » ويجب أن يجلس لسماعها جلسة مريحة .

هذا هو تأثير الموسيقا فى الحيوان الأعجم البليد الاحساس الفاقد الشعور ، فكيف بتأثيرها فى الانسان الذى يموج بالعواطف والأحاسيس، ويزخر بالشعور والانفعال والوجدان ؟ إن الموسيقى تذهب فى تأثيرها للإنسان إلى مدى بعيد واسع بحيث يتمايل عجباً ، ويترنح طرباً ويهتز سروراً ، وقد رأى بعض المربين أن الأغانى والموسيقا تنشران بسرعة البرق على

ألسنة الناس متعلمهم وجاهلهم فرأوا أن تلقن الفضائل والمبادىء القومية ، والنعرة الوطنية بوساطة الموسيقا ، وقدقطعوا فى هذا البحث أشواطاً بعيدة .

والموسيقا بعد هذا كله تنشط النفس ، وتشجع الجبان ، وتقوى الضعيف ، وتخف بها الحركات ، ولم تخف أهميتها على قادة الجيوش منذ القدم ، فكانوا إذا ساروا بعسكرهم وضعوا فى الطليعة فرقا خاصة تنفخ فى الأبواق ، وتقرع الطبول فتثور عاطفة الحماسة فى صدور الجنود ويلهبهم حب الانتصار والفوز فيقتحمون الموت غير مبالين ، ويغالبون الجوع والعطش ، ويدافعون عن أوطانهم بقوة تفوق قوتهم .

وقال الرحالة « بروس » إن الناى الحبشى إذا عزف فى ساحات الوغى كان باعثاً على تحميس الجنود الأحباش إلى حد الهوس والجنون ، وقال مؤرخ ألمانى عظيم « إن عزف المرسلياز فى الحرب أثار فى نفس الجنود الفرنسيين حماسة وشجاعة كانت سبباً فى قتل خمسين ألفا ألمانيا ، ويقول بعض المؤرخين إن نابليون عزا هزيمته فى روسيا إلى الشتاء أولا وإلى موسيقا الجيش الروسى ثانيا .

وقد استغلت الموسيقى فى توجيه الشعوب توجيها اجتماعيا صالحا ، توجيها يقودها إلى طرق الهداية والرشاد ، لأنها تنبه فيها عواطف الخير ، وتوقظ الضمير فتتحرك الأريحية ، وتنشط الهمم الخائرة ، والعزائم الراكدة .

ويروى أن معاوية بن أبى سفيان سأل عبد الله بن جعفر عن سبب تحريك رأسه عند سماع الغناء فقال إننى أجد فى نفسى ياأمير المؤمنين عند سماع الغناء أريحية لو لاقيت عندها لأبليت ، ولو سئلت عندها لأعطيت .

والموسيقا توحى بتهدئة المزاج الثائر ، والغضب الفائر ، فقد حدث أن قامت فى « فينا » ثورة من الثورات الكبيرة التى كان الفقراء يضرمون نارها طلبا للقوت ، فنهبت المتاجر والمخازن ووصلت طلائع الثوار إلى القصر الامبراطورى مهددة بالدخول إليه واتفق أن كان هنالك الموسيقى المشهور

« جوهان شتراوس » يعلم فرقته وإذا بأحد الأمناء يهرع إليه صائحا . الغوث ! الغوث ! : إن الدهماء تحطم زجاج النوافذ وتهدد بالويل والثبور ، ولم يعد الحرس قادرين على صدهم ، وفى الحال خرج الموسيقى وأفراد فرقته ، وأمرهم بالعزف فبهت الثوار لروعة الموسيقا وراقهم مارأوه من انتظام سير الفرقة الموسيقية ولباسها وحركاتها وكأنها أوحت إليهم شيئا فما لبثوا ان غفلوا عما هم فيه وأنصتوا إلى ذلك اللحن للطرب الذى يسحر الألباب ، ثم أحاطوا بالفرقة الموسيقية وساروا وإياها صامتين فقادهم « شتراوس » من شارع إلى شارع بعيداً عن القصر وهكذا أخمدت الثورة بلا سلاح غير الموسيقا ، وبلا ضحايا سوى النغم .

وعقب انتهاء الحرب الأخيرة فى أوربا حظر الحلفاء على الألمان غناء أو عزف الأناشيد الموسيقية الألمانية بجانب منعهم من حمل السلاح ، ومن هذا نعلم ماللموسيقا من أثر فى نظر الأمم المتحضرة ، إذاً فخطر الموسيقا كخطر السلاح .

وكثيرا ماقال « هتلر » لصحبه : إن من أراد أن يعرف المانيا الاشتراكية فعليه أن يعزف أولا موسيقا « واجنر » والعمال يطول بهم زمن الغناء البدنى فيستأنسون بالغناء ويزدادون به قوة وإقداما كما أن إنتاجهم يزداد بنسبة ١١ ٪ على حسب ماأثبتته التجارب .

وقد يلهى الغناء أرباب المهن الدنيئة عن مزاولتها ، قال لص عن نفسه : دخلت ذات ليلة فى ملهى موسيقى لأترقب فرصة السرقة ، ولما ارتفع صوت الغناء الشجى غاب صوابى وألهانى الإنصات له عن مزاولة مهنتى فخرجت من الملهى ملوء الأذنين ، صفر اليدين ، عائدا بخفى حنين وبعد هذا وغير هذا فالغناء والموسيقا هما رى الصادى ، وغذاء الطاوى ، وزاد المسافر وعلالة المقيم ، نقل المبرد عن عمر الوادى أنه قال : أقبلت من مكة أريد المدنية فجعلت أسير فى مرتفع من الأرض فسمعت غناء لم أسمع بمثله ، فانحدرت إليه فإذا عبد أسود فقلت له أعد على ماسمعت فقال لى : والله لو كان عندى

قرى أقريك به مافعلت ، ولكنى أجعله قراك ، فإنى ربما غنيت هذا الصوت وأنا جائع فأشبع ؛ وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط وربما غنيته وأنا عطشان فأروى .

وألمانيا بعد الحرب الأخيرة قد فجعت فى آمالها ، وطوت نفسها على الحسرة ، وهى الآن ليس لها من طعام وشراب سوى الموسيقا ، فالموسيقا هى عزاؤها والموسيقا هى غذاؤها .

فالموسيقا إذن تمسح بيدها الحانية الحادبة العطوف صدأ الهم ، الذى يرين على القلوب وتزيل بنشوتها الفرحة المرحة الطروب عناكب البؤس المخيم على النفوس ، والموسيقا تفثأ من ثورة الأيام ، وتقلم من أظفار المصائب ، وهذا فوق أنها مهذبة الطباع ومشذبة الأخلاق ، وذاهبة بالانسان إلى أودية ترف بالآمال العذاب وتحفل بطوالع السعود .

ورأيى أن الناس لا يصمتون أثناء الغناء والطرب إلا لأن حسهم قد طار على جناحى نعامة إلى أودية الخيال ، وعقولهم قد ركبت متن الريح إلى عالم يزخر بطيوف من المنى وهالات من الرؤى ، وهم لا يصفقون استحسانا ولا يكدون حناجرهم هتافا أو دعاء إلا لأن المغنى أو الموسيقى بعد أن صمت قد ردهم فجأة ، وبدون تمهيد إلى عالم الواقع المرير ، فهم بهذا لا يودون الرجوع إلى الحقيقة الصادقة الفاجعة ، وكأنى بالإنسان إذا خاطب سمعه لحن جميل ، أنه يصمت ليسمع مع الموسيقا دقات قلبه الراقص وغناء عواطفه وأحاسيسه وكأن بلسان حاله يقول : أذهبى إلى غير رجعة أيتها الأفكار السوداء ، واعزبى إلى غير عودة أيتها الأشباح المخيفة ، واقبلى أيتها الآمال الباسمة ، وأشرقى فى سمائى أيتها الأمانى السمان ، فقد أضحت الحياة باسمة المحيا ، ناضرة الجنبات ، كل شىء فيها ضاحك باسم ، وكل ماحولى يبشر بالخير العميم .

فالموسيقا إذاً تقلع الأفكار الشوهاء من الأذهان ، وتنزع اليأس والضيق والألم وتغرس مكان هذا الأمل والفرح والتجديد المحبوب والتغيير المرغوب .

وبعد ، فان عالمنا حافل ومفعم بضروب المتاعب وألوان الآلام : فهذه حادثات الليالى ، وأزمات الأيام ، وهذه كوارث تنزل على الانسان من فقر وفقد عزيز ، وفراق صديق ، وفشل قد يقابل الانسان ، وعقبات كأداء قد تعرض له فى الحياة ، وهذا تعب من العمل ، ومضايقات من معاملات الناس ، وهذه آمال ترزح ، فوق الصدر ، وطموح يجثم على النفس ، وكل هذا يستلزم الترفية عن النفس ، ويتطلب شحذ الهمم ، وما الموسيقا والغناء إلا المرفه البرىء ، والرائد الذى لا يكذب ، والصديق إذا عزت الأصدقاء ، وندت الاخلاء .

جعل الله حياتنا جميعا أغنية عذبة فى فم الزمان ، وصير عيشنا لحناً جميلا تصدح فيه موسيقا الهناءة والسعادة ، وتغرد فيه بلابل اليمن والإقبال .

طه خطاب طه